أماراباك: *مجلة علمية محكمة تصدر عن الأكاديمية الأمريكية العربية للعلوم والتكنولوجيا* www.amarabac.org
المجلد 11، العدد 39 (2020). ص ص 1- 14

طبقات فحول الشعراء: قضايا أدبية وأبعاد نقدية

مشهور موسى مشاهرة[1]
جمال عبد الجابر عاصي[2]

الملخّص: تأتلف هذه الدّراسة من ثلاث قضايا نقديّة من كتاب: طبقات فحول الشّعراء لابن سلّام الجُمَحي. الأولى: في نشأة الشّعر، والثّانية: في تعريفه، والثالثة: في التعصّب المذهبي. ناقشت في الأولى كلام ابن سلّام في نشأة الشّعر، وخاصّة حديثه في أسباب عدم الإحاطة بشعر القبائل، وأسباب ضياع كثير من الشّعر العربي من وجهة نظره. وقد تبيّن لي بعد ما جعلت نصّ ابن سلّام نفسه هو الحكم أنّ ذِكره لنشأة الشّعر ما هو إلا حديث عن الانتحال. وأمّا تعريفه للشّعر فبعد تحليل كلامه في تشاغل العرب عن قول الشّعر، وتعليق الدكتور ناصر الدين الأسد، فقد تبيّن لي أنّه اتّخذَ تعريفا جعله معيارا وحكَما لتأسيس نظريّة نقديّة مستقلّة. وفي حديثه عن التعصّب المذهبي ناقشت قضايا نقديّة وأدبيّة تتعلّق بمدرسة البصرة والكوفة، وتوثيق الرّواة، وقد تبيّن لي أنّ المقصد من وراء ذلك كلّه هو نِقاش قضيّة الانتحال.

الكلمات المفتاحية: النقد، الشعر الجاهلي، الانتحال، التعصّب المذهبي.

Tabaqat Fuhoul Al; Shuara: Literary Issues and Critical Dimensions

Mashhour Mashahreh
Jamal Assi

Abstract: This study consists of three critical issues in Ibn Sallam's book "Tabaqat Fuhoul Al; Shuara'": 1) the origins of poetry, 2) its definition, and 3) the bias of the school. In the first, Ibn Salllam's discussion of the origin of poetry, especially his discourse of the reasons behind not comprehending the poetry of tribes, along with the loss of a lot of Arab poetry from his point of view, was presented. With the text of Ibn Sallam being the basis upon which judgments are made, it becomes clear that the purpose of him mentioning the origins of poetry was nothing but implying it was falsified. As for his definition of poetry, and after analysing his discussion of Arabs' negligence of saying poetry, and the comment of Dr. Nasser Al-Din Al-Assad, it is clear that Al-Jumhi had adopted a definition that he considered a standard and rule for founding an independent critical theory. With regard to the school bias, I discussed critical and literary issues related to the Basra and Kufa schools, and the authenticity of narrators to conclude that the purpose behind this was to discuss the issue of falsification.

Keywords: criticism, Pre-Islamic Poetry, falsification, the bias of the school.

[1] أستاذ مساعد في البلاغة والنّقد/ جامعة بيرزيت/ فلسطين، mmashhour@birzeit.edu
[2] محاضر في الأدب العربي/ جامعة بيرزيت/ فلسطين، jassi@birzeit.edu

المقدمة:

يُعَدُّ كتاب طبقات فحول الشّعراء لابن سلّام الجمحي من المصادر الخالدة التي أثارت قضايا أدبية ولغوية صارت فيما بعد عناوين لدراسات مستقلّة([3])، ولمّا كان كتابه مصدرا رئيسا للباحثين في النقد الأدبي خاصّة([4])، فقد رغبت في إعادة قراءة بعض قضاياه قراءة ثانية منطلقا من نصّ ابن سلّام نفسه، فهو المحور والمرتكز، ذلك أنّ كثيرا من الدّراسات التي كتبت عن ابن سلّام لم تجعل نصّه حَكَما بل كانت تحكم عليه من قراءات وإسقاطات من خارج النص، كما سيتّضح.

قرأت الكتاب قراءة متأنّية فوجدت ثلاث قضايا رئيسة تستحقّ أن يقرأها الباحثون قراءة أخرى، وقد نظمتها على الترتيب في ثلاثة مطالب، **المطلب الأوّل**: ابن سلّام والشعر العربي (قراءة في النشأة)، **والمطلب الثاني**: الشعر ديوان العرب، **والمطلب الثالث**: التعصّب المذهبي وأثره في الشّعر.

نظرت في **المطلب الأول** أبعاد كلام ابن سلّام في نشأة الشعر، وكيف وُظِّفت إشاراتُه هذه لاحقاً، وقد كانت لي وقفةٌ قصيرةٌ أخرى ناقشتُ فيها أسبابَ عدمِ الإحاطة بشعر القبائل، وأسبابَ ضياعِ كثيرٍ من الشعر العربي من وجهة نظر ابن سلّام.

وناقشت في **المطلب الثاني** تعريفاً مُوسّعاً ارتضاه ابن سلّام للشعر العربي، وكان لي وقفة مع نصّه الذي ذكر فيه تشاغلَ العربِ عن قول الشعر، فكشفت النّقاب عن مقصوده، وذلك بعد تعليق مطوّل على كلام الدكتور ناصر الدين الأسد في هذا المجال.

وفي **المطلب الثالث** وقفت مع التعصّب المذهبي من خلال الحديث عن مدرستي البصرةِ والكوفة، وتوثيق الرّواة، والإسناد؛ لأن كلَّ واحدةٍ ترتبطُ بحُجزة أختها.

وبعد، فقد أنعمتُ النّظر في عبارة ابن سلّام، متّكئا على المنهج التحليلي الاستنباطي الذي يتعالق بالمناهج الأخرى، في محاولة من غلبة الظنّ أو ترجيحِ رأيٍ على آخر، لعلّي أخرج بقراءة نقديّة جادّة، مستفيدا من الدراسات السّابقة، ومؤسّسا لقراءة جديدة، وفاتحا الطّريق لأسئلة أخرى دَيْدَنَ الدّراسات العلمية. ولكلّ ما تقدّم، سيلاحظ القارئ عدم خلوّ مبحث من فكرة أحسبها جديدة، وقد ناقشت فوافقت وربّما عارضت، وما ذلك إلا لأنّي رأيت كتاب ابن سلّام أصلاً جامعاً لكلّ من كتب في الأدب الجاهليّ أو النقدِ القديم، سواءً أصرَّحوا بذلك أم لم يُصَرّحوا، فقد ولد كتابُهُ تامّاً أو قريباً من التّمام.

ولا شكّ في أنّي أفدتُ من دراسات سابقة كثيرة، سواء أكانت كتبا مستقلّة أم بحوثا علميّة محكّمة أم رسائل جامعيّة، إلا أنّ كتاب: **مصادر الشعر الجاهلي للدكتور ناصر الدين الأسد** كان له الحظّ الأوفر من ذلك، نظرا لكونه من المصادر الأدبية النقديّة الأولى التي ناقشت وحاورت وحاولت أن تستدرك على المصادر الأولى، في محاولة منه لتأسيس منهج جديد في دراسة الشّعر ونقده، ولكلّ ما تقدّم كان حضوره أكثر من غيره، مؤيّدا أو ناقدا مستدركا، بل، لا أجانب الصّواب إن قلت إنّ ما

([3])انظر على سبيل المثال:
العبّادي، عبد الله عبد الكريم: **المقاييس النقدية في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلّام (رسالة ماجستير)**، السّعودية: جامعة الملك عبد العزيز، 1976. وحلاسة، رانيا: **الجودة في النقد الأدبي القديم: طبقات فحول الشعراء لابن سلّام نموذجا (رسالة ماجستير)**، الجزائر: جامعة قاصدي مراح، 2014. والغزّاوي، خلدون فخري: **شعراء مكّة المكرّمة عند ابن سلّام الجمحي في كتابه طبقات فحول الشعراء: الرؤية والفن (رسالة ماجستير)**، الأردن: جامعة العلوم الإسلامية العالمية، 2015. وربوح، أسماء: **مصطلحا الطبع والتكلّف في كتاب طبقات فحول الشعراء لابن سلّام الجمحي (رسالة ماجستير)**، الجزائر: جامعة قاصدي، 2015. والنور، بشارة الزين علي: **معيار الجودة في طبقات فحول الشعراء (رسالة ماجستير)، السّودان:** جامعة النيلين، 2016. وابن خدة، حورية: **الفحولة بين الأصمعي وابن سلّام الجمحي (رسالة ماجستير)**، الجزائر: جامعة قاصدي،2017.

([4])انظر على سبيل المثال لا الحصر:
أبو علي، نبيل خالد: "طبقات فحول الشعراء: عرض ونقد وتحليل"، **مجلة كلية التربية**، جامعة الأقصى: مج1، ع1، 1997، ص113-146.
الزيدي، توفيق: "مدوّنة الشعراء النقدية طبقات فحول الشعراء نموذجا"، **حوليّات الجامعة التونسيّة**، جامعة منوبة: 1987م، ص63-97.

جاء في هذه الدّراسة قريب مِمّا يمكن تسميته بالحواشي، فهو على هيئة نقد أو حاشية على كتاب: مصادر الشّعر الجاهلي، محتكما في كل ما أقول لكتاب: طبقات فحول الشّعراء لابن سلّام الجمحي.

المطلب الأول: ابن سلاّم والشعر العربي (قراءة في النشأة).

قال ابن سلاّم: "لم يُجاوِز أبناءُ نزار في أنسابهم وأشعارهم عدنان، اقتصروا على معدّ. ولم يذكر عدنان جاهليٌّ قطُّ، غيرُ لبيدِ بنِ ربيعةَ الكلابيّ في بيت واحد... فنحن لا نقيمُ في النّسب ما فوق عدنانَ، ولا نجد لأوّليّة العرب المعروفين شعراً، فكيف بعادٍ وثمود، فهذا الكلام الواهن الخبيث...وقال أبو عمرو بن العلاء في ذلك: ما لسانُ حميرَ وأقاصي اليمن اليومَ بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا، فكيف بما على عهدِ عادٍ وثمودَ، مع تداعيه ووهيه؟"([5])

وقال أيضاً: "ولم يكن لأوائل العرب من الشِّعر إلا الأبياتُ يقولها الرّجل في حاجته، وإنما قُصّدت القصائدُ وطوّلَ الشعرُ على عهد عبد المطلب، وهاشمِ بن عبد مناف. وذلك يدلّ على إسقاط شعر عادٍ وثمودَ وحميرَ وُتبّع"([6]).

تُعَدّ قضيّة النشأة من القضايا الشائكة الوعرة، وقد أضنت تلك القضية صُنّاع الأدب العربي وغيرهم عن البتّ القاطع في أمرها. وكان قِوامُ ما يُتوصّلُ إليه في هذا المضمار من استنتاجات وأحكام ظنّياً حمالَ أوجهٍ يكتنفها الصواب، ويلفّها التشويش، وقد يكون الخطأ.

ويعود عدم القطع في شأن هذه القضية وظنونها، إلى أنّ الأساس الذي بُنيت عليه ليس تجريبياً علمياً محكماً، وأنّى لنا بالطريقة التجريبيّة وقد غبَرت الأزمنة الأولى، وبعد عهدها، فانقطعت الأخبار الموثّقة إلاّ ما ندر مما يحتمل غير وجه. يقول الدكتور ناصر الدين الأسد: "على حين تكون نشأة الأشياء ملفوفة بكثير من الغموض، وغالباً تُعوِزُها النصوص والمعلومات"([7]).

ومن الملاحظ أنّ ابن سلاّم لم يطرق هذا البابَ طرقَ الباحث المُوصِّل المؤثِّل لنشأة الشعر العربي، إنّما كان غالبُ أمره _ فيما أحسب _ من وراء ما ذكر أن يُورِدَ شعراً وُضع أو انتُحل. فما كان الحديث عن النشأة إلا خدمة لمقصد آخر، وقد نبّه الدكتور ناصر الدين الأسد على ما في هذه القضية من إرشادات ودلالات، وطوّرها في بحثٍ وسَمَه بـِ" نشأة الشعر الجاهلي وتطوّره: دراسة في المنهج".

واعتمد الدكتور ناصر الدين الأسد في بحثه الطريقةَ العقليةَ القائمةَ في أصلها على مسلّماتٍ وبديهيّات، ومن ثمّ نفي وإقصاء، ومحاولة التخمين والاستنتاج بعد أن يكون التحليلُ والنّقاشُ لِما توصّل إليه من أدلّة وبراهين في هذا المجال. وهذا في ظنّي أفضل المناهج لتتبع أصول العلوم ومنابتها.

فبعد أنْ نبّه الدكتور ناصر الدين الأسد القارئ على مخاطر هذه السبيل، ووعورة مسالكها، وظنّيّ أحكامها، دخل في حوار لطيف مع الدكتور عبد الله الطيب في كتابه: "المرشد إلى فهم أشعار العرب وصناعتها " ونَقَدَ ما توصّل إليه الدكتور الطيب من انطباعات تفتقر في مجملها إلى المنهج والدليل، ثم كانت وقفته مع الدكتور محمد عبد الرؤوف صاحب: "بدايات الشعر العربي بين الكم والكيف"، وقد ردّ ما توصّل إليه عبد الرؤوف من جهة العروض وغيره. وفي وقفته مع نجيب محمّد البهبيتي في كتابه: (تاريخ الشّعر العربي) يوضّح مقصد الجاحظ من نصوصه ويُجلّيه. واستمرّ

([5]) الجمحي، محمد بن سلاّم: **طبقات فحول الشعراء**، قرأه وشرحه: محمود شاكر، القاهرة: مطبعة المدني، ص:10- 11.
([6]) **طبقات فحول الشعراء**، ص 26- 40.
([7]) الأسد، ناصر الدين: **نشأة الشعر الجاهلي وتطوّره: دراسة في المنهج**، بيروت: المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، 1999، ص16.

الدكتور ناصر الدين الأسد في بحثه إلى أن كان حديثه في الفصل التّالي عن النّقوش، وتبيانه لثلاث نقائص فيها؛ قلّة عددها وتباعد أزمنتها، ومن ثمّ انفصال أوائلها عن أواخرها، وانحصارها في المنطقة الشمالية من بلاد العرب. ناقش بعد ذلك الدكتور ناصر الدين الأسد آراء القدماء المتعلّقة بموضوعه، وأشار إلى منهج ارتضاه في تتبع أوّليّات الشعر العربي، وهو اتّخاذ أعمار الأجيال مقياساً لتقدير أزمانهم وعصورهم. ثم كان الحديث عن سيل العرم من جهة زمان حدوثه وخرابه وطريقة تحديد ذلك.

والمنعم في كلام الدكتور ناصر الدين الأسد الذي لخّصته _ يلحظ أنّ كثيراً من الأفكار التي يطرقها تعدّ امتداداً لخيوط النشأة التي تحدّث عنها ابن سلاّم وغيره من الأوائل، كما أنّ الأسئلة التي يثيرها أو يقف عندها ما هي في حقيقتها إلا توسيع لميدان هذه القضيّة التي طالما أشار إليها ابن سلاّم في صفحات كتابه([8]).

وقد أحسن الدكتور ناصر الدين الأسد في غير ما موضع من كتابيه؛ نشأة الشعر، ومصادر الشعر الجاهلي، حيث أسّس أحكاما على كلام ابن سلاّم، وتابع دلالات كلامه، وما فيه مِمّا يمكن أن يكون أساسا لقضايا مستقلة، كما هو الحال في نشأة الشعر مثلاً. حيث حرّك الأفكار وحاول استنطاق كوامنها، لا كما فعل الدكتور طه حسين مثلاً في إفادته من ابن سلاّم([9]).

وبِصَرف النظر عن حال النشأة وما يعتورها من أحكام ظنيّة، واحتمالات اجتهادية، فإنّ الشعر كان ديوان العرب بكل ما تحمله كلمة ديوان من دلالات ومعانٍ يمكن أن يصل إليها الباحثون. ولمّا كان ذلك كذلك، فقد كثر شعرهم حتى أتعب الباحثين في طلبه. قال ابن سلاّم: "ذكرنا العرب وأشعارها، والمشهورين المعروفين من شعرائها وفرسانها وأشرافها وأيّامها، إذ كان لا يُحاط بشعر قبيلة واحدة من قبائل العرب... "([10]).

ولم يُقرّر ابن سلاّم هذا الحكم إلا ويعلم كثرة ما فقد من تراث هذه الأمة. قال أبو عمرو بن العلاء: "ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلّه، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير"([11]).

إنّ كثرة ما ضُيّع من الشّعر العربي تجعل أبا عمرو بن العلاء يقول ما قال متحسّرا. وما بقي لنا من دواوين القبائل _ على فرض أنّ القبيلة تدوّن جميع شعرها _ خير شاهد على ذلك([12]).

وقد لمح الدكتور ناصر الدين الأسد دور القبيلة وأهميتها فيما يتعلق بالشعر وتدوينه، فأنشأ فصلاً تحدّث فيه عن كثرة هذه الدّواوين، وذكر بعد ذلك ما بقي لنا منها([13]).

ويجدر بنا أن نعود إلى نصّ ابن سلاّم وما فيه من دلالات وإشارات فنحاول أن نقف مثلاً على أسباب عدم الإحاطة بشعر القبائل، مع الإشارة إلى بعضٍ من أسباب ضياعه، وما في ذلك أيضاً من دلالات يمكن أن نمتحها من نصّ ابن سلاّم نفسه.

إنّ القارئ للشّعر الجاهلي وما كُتِبَ عنه أو حوله يغلب على ظنّه أنّ هذا الشعر كان في قبائل عربيّة كثيرة، إلا أنّ سياسة القبائل العربية آنذاك ربما غلبت عليها الطبقيّة من وجه من الوجوه على أقلّ التقدير، فمن اقترب من الشّيوخ أو حضر مجالسهم، أو كان له قوم وعزّ ونسل من بعده، فإنّ شعره لا شكّ في أنّه حُفظ أو دُوّن؛ رواية أو كتابة، أضف إلى ذلك مَن برّز في لون أو غرض من

([8]) انظر النصوص التي يقتبسها الدكتور ناصر الدين الأسد من ابن سلاّم. وانظر أيضاً غير ما ذكرت: **طبقات فحول الشعراء**، ص26-40.

([9]) وسيأتي لهذا الكلام مزيد توضيح لاحقا، إن شاء الله تعالى.

([10]) **طبقات فحول الشعراء**، ص3.

([11]) **طبقات فحول الشعراء**، ص25.

([12]) انظر: الأسد، ناصر الدين: **مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التّاريخيّة**،ط7، بيروت، دار الجيل، 1988، (الفصل الثاني من الباب الخامس)، ص543-572.

([13]) انظر: **مصادر الشعر الجاهلي**، وحديثه في الفصل الثاني من الباب الخامس، فقد وقف على معنى تلك الدواوين وما تحويه، وكذلك زمن إنشائها، وحالها مع الرواة.

أغراض الشعر المعروفة. هذا فضلاً عن الشّعراء الفرسان المشهورين، أو الشّرفاء المعدودين المذكورين، ناهيك والحال ما ذكرت من شاعر قال في مآثرهم، أو تغنّى بيوم من أيّامهم أو غير ذلك.

إذا تخيّلنا ما تقدّم فلْنوازن بين هذه الصّورة، وحال القلّة المعدودة التي قامت على جمع هذا الشّعر، وندرة وسائلها وقتذاك.

ولا شكّ في أنّ الأمر يفتقد إلى البرهان المحكم، ولكنْ جماع ما يمكن أن نتوصل إليه في هذه السبيل؛ هو ترجيح احتمال على آخر يُفاد من دلالات ذهنية لأحكام وإشارات يمكن أن نلمحها من نصوص القدماء.

وعليه فلو تصوّرنا _ إذ الحكم على الشيء فرع عن تصوره _أنّ باحثاً اجتماعياً يعتمد الوسائل التقليدية في جمع بيانات من الناس، فكم يحتاج من الوسائل التقليدية لتغطية هذه الحقيقة؟ إنّ العالم يومذاك اعتمد الرواية الشفهيّة، وكذلك ما تُعورف عليه من طرق للتدوين عندهم. ولنا أن نتصوّر مقدار هذا الجهد فيما يُحتاج إليه من أدوات للكتابة، خاصّة وأنّ كثيراً من الشّعر يقترن بحوادث وأخبار قد تقصر أو تطول.

ولا بدّ لنا _ ونحن نتصوّر ما ذكرت _ أن نعلم أنّ الشعر العربي مهما بلغت قيمته لِما يحويه ويسطّره إلخ، فليس بقرآن يتلى أو سنّة يُهتدى بها. ولذلك يبدو لي أن التّدوين لم يكن بالكثرة المرجوّة. ونحن نسمع في هذه الأيام _ على ما وصلت إليه من تقدّم في الكتابة والمدنيّة -لشعراء كثيرين، فإذا سألناهم شعرهم، أنشدونا. فإذا طلبناه مكتوباً، ربّما اعتذر عدد منهم بقوله: لم أكتبه. وحتّى لا نغرق في بحر الأمثلة، نأخذ حدثاً بارزاً: كالانتفاضات أو الهبّات في فلسطين أو غيرها، فهي أحداث جسام تُسمع وتشاهد، ويكون التأثّر، ولكنّ تدوينها في الكتب مقصور على جهات رسمية، لا تغطّي في أغلب الأحيان جزئيات الأحداث. بل قوام أمرها أن تقتصر على ما لمع واشتهر.

ومن ثم أرجّح بأنّ كثيراً من شعراء القبائل لم يدوّن شعرهم، ولربما لم يكن لبعضهم من يعتني بشعره فينقله. ويغلب على ظنّي أيضاً أنّ العلماء حين ضربوا في البوادي، لم يكن همّهم جمع هذا الكمّ من تراث الأمّة الشعري، بل جلّ أمرهم – في أحسن الأحوال_ مبنيّ على الاختيار الذي يوافق مقاصدهم، سواء أكانت تلك المقاصد متعلّقة بعلوم العربيّة أم بنفسيّة الجامع من حيث الحسّ والشّعور. ومِمّا غلب على ظنّي أيضاً-والأمور بغلبة الظنّ- أنّ القبيلة لم تكن تدوّن جميع شعرها، بل قوام أمرها على ما اشتهر وتعلّق بأمجادها مما سبق وأشرت إليه.

قال ابن قتيبة: "والشّعراء المعروفون بالشّعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهليّة والإسلام أكثر من أن يحيط بهم محيط، أو يقف من وراء عددهم واقف، ولو أنفذ عمره في التنقير عنهم، واستفرغ مجهوده في البحث والسؤال. ولا أحسب أحداً من علمائنا استغرق شعرا حتى لم يغنه من تلك القبيلة شاعر إلا عرفه، ولا قصيدة إلا رواها"([14]).

ومع ما في النّصوص من إشارات لضياع الكثير وفقدانه، إلا أنّ الغموض يلفّ القضيّة ويضرب ببجرانه مختلف نصوصها، سواء فيما يتعلّق بالجامع أم بطريقة الجمع أم بنوعيّة المجموع نفسه، وتبقى القضيّة من ثَمّ تثير أسئلة أكثر ممّا تعطي من إجابات، مع ارتياح نسبيّ للطّريقة العقليّة المنطقيّة في البحث والمحاورة.

([14]) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: **الشعر والشعراء**، تحقيق وشرح: أحمد شاكر، ج1، ط3، القاهرة: دار الحديث، 2001، ص60.

المطلب الثاني: الشعر ديوان العرب

قال ابن سلاّم: "وفي الشعر مصنوع مفتعل موضوع كثير لا خير فيه، ولا حجّة في عربيّة، ولا أدب يُستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثلٌ يُضرب، ولا مديحٌ رائع، ولا هجاء مقذع، ولا فخرٌ معجب، ولا نسيبٌ مستطرفٌ. وقد تداوله قوم من كتابٍ إلى كتاب، لم يأخذوه عن أهل البادية، ولم يعرضوه على العلماء. وليس لأحدٍ _ إذا أجمع أهل العلم والرّواية الصّحيحة على إبطال شيء منه _ أن يقبل من صحيفة، ولا يروى عن صُحفي"([15]).

إذا علمنا أنّ البيئة البصرية الاعتزالية، كان لها دور فاعل في تشكيل البنية العقلية المنطقيّة ذات الطّابع التّنظيمي عند ابن سلاّم، فليس لنا أن نعجب عندها من أبعاد ما يرمي إليه ابن سلاّم في حدوده.

ومن اليقين البيّن أنّ غير باحث من المشتغلين في الأدب العربي، ومن غيرهم قد نظر تعريف ابن سلاّم هذا. ولمّا قرأت لكثير ممن كتب عن ابن سلاّم وكتابه، أثار عجبي أني لم أجد أحداً _ حسب اطلاعي _ وقف على هذا التّعريف وقفة المفهوم (نقيض المذكور) وكشف حجابه ودلالاته وأبعاده.

أقرأ هذا التعريف وألمح فيه بعداً منطقياً كلاميّا يرشح من دقّة عقليّة ابن سلاّم. وربّما كان أثر المعتزلة سبباً من أسباب هذا الضّبط المنطقيّ القائم على الإثبات في سياق النّفي([16]).

ومن ثمّ فكأنّ الشّعر الصّحيح المعتبر، الذي ينبغي أن يُشار إليه ويصنّف على أساسه، ويذكر في الطّبقات ابتداءً عند ابن سلاّم: هو ما كان على هذه الصّفة؛ أعني صحيحاً موثوقاً ليس مصنوعاً ولا مفتعلاً، ولا حتّى تطرّق الوضع إليه، يحمل معاني تذكر، حجّة في العربيّة، فيه أدب يُستفاد، ومعانٍ عميقة تُستخرج، وربّما كان على هيئة مثل يُضرب. وإن كان مديحاً فلا بُدّ أن يكون رائعاً، أو هجاء فيكون مقذعاً، أو نسيباً فيكون مستطرفا([17]). مأخوذ عن أهل البادية رواية ومشافهة، غير معوّل فيه على الكتب وحدها، بل لا بدّ مع ذلك من عالم ناقد صيرفيّ يُميّز صحيحه من فاسده. مع تحفّظ ابن سلاّم مِن أَخْذِ ما تقدّم من شعر عن صحفيّ غلبت عليه هذه الصّفة. وكأنّ في هذا عدم ثقة بالمدوّنات، وكم قرأنا عن ذمّ من يأخذ علمه من كتاب ولم يعرضه على الشيوخ.

وإذا رجعنا إلى هذا التعريف ونظرنا طبقات ابن سلاّم رأينا اختياره للشّعر، وطبيعة الأحكام المبثوثة في ثنايا كتابه تصدر في مجملها عن هذا التعريف. وعليه فإنّ تعريف ابن سلاّم هذا ليس حدّاً فحسب، بل هو دلالات لأساس في منهج حكمه على الشّعر والشّعراء. وإذا رجح لدينا أنّ أحكام ابن سلاّم واختياراته الشعريّة كانت على أساس هذا التعريف، نكون عندها قد أمطنا جزءا من اللّثام عن

([15]) **طبقات فحول الشعراء**، ص4.

([16]) ومن المعروف أنّ البصرة بلد الاعتزال، وللتوسع في الحديث عن مدرسة البصرة والكوفة يُنظر على سبيل المثال:

1. **العصر الجاهلي**، ص 148- 158.
2. ضيف، شوقي: **المدارس النحوية**، ط6، القاهرة: دار المعارف، ص1-240.
3. السلطان، منير: **ابن سلاّم وطبقات الشعراء**، ط2، الإسكندرية: منشأة المعارف،1986، ص194-200.
4. **مصادر الشعر الجاهلي**، ص429-438.

ولكي نتعرّف اعتماد أسلوب النفي في الوصول إلى الإثبات في الدراسات الأدبية، يمكن أن ننظر ما يكتبه الأسد، فعلى سبيل المثال، يقول في كتابه نشأة الشعر: " لقد كُنّا جديرين بأن نقطع بذلك [يعني أنّ الشّعر العربي وموسيقاه وأوزانه لم يكن مقتبسا من شعر الأمم الأخرى، وإنّما هو أصيل من اختراع العرب أنفسهم] دون تردّد، ونجيب بالإيجاب، لولا أنّ طريقنا كان طريق الاستدلال على وجود الشيء بنفي ما عداه واستبعاده" **نشأة الشعر الجاهلي وتطوّره: دراسة في المنهج**، ص42.

([17]) هذه الإشارات هي نفسها معايير الآمدي في الموازنة بين الطائيّين، وهي من الأركان السبعة لعمود الشعر العربي كما نصّ على ذلك المرزوقي في مقدّمته. يقول المرزوقي: "إنّهم كانوا يُحاولون شرف المعنى وصحّته، وجزالة اللفظ واستقامته، والإصابة في الوصف - ومن اجتماع هذه الأسباب الثلاثة كثرت سوائر الأمثال، وشوارد الأبيات – والمقاربة في التشبيه، والتحام أجزاء النّظم والتئامها على تخيّر من لذيذ الوزن، ومناسبة المستعار منه للمستعار له، ومشاكلة اللفظ للمعنى وشدّة اقتضائهما للقافية حتّى لا منافرة بينهما. فهذه سبعة أبواب هي عمود الشعر، ولكلّ باب منها معيار" المرزوقي، أبو علي أحمد بن محمد: **شرح ديوان الحماسة لأبي تمّام**، وضع فهارسه: إبراهيم شمس الدين، ج1، بيروت: دار الكتب العلمية، 2003، ص 10 وما يليها. من أجل ذلك فإنّ التّناص النّقدي كما الأدبي يستحقّ الدّراسة. وانظر أيضا: الآمدي، أبو القاسم الحسن بن بشر: **الموازنة بين أبي تمّام والبحتري**، تحقيق: السيّد أحد صقر، ط5، القاهرة: دار المعارف، 2006.

حلقة مفقودة في كيفية إصدار ابن سلاّم الأحكام على الشّعر والشّعراء في كتابه، أو عرفنا على الأقلّ: الأساس الذي يعتمده ابن سلاّم في أحكامه واختياراته.

ومن دلالات هذا التّعريف وأبعاد هذا الكشف أيضاً أنّه يشق للباحثين طريقاً يبساً سهلاً للتّعرف إلى النّظريّة النّقديّة التي يصدر عنها ابن سلاّم في طبقاته. وإن كان ما توصلت إليه فيه منطق صائب وصحّة تُرتجى_ وهو ما يغلب على ظنّي _ فأكون عندها قد نبّهت على إشارة لطيفة لطالما كانت مركوزة في هذا التعريف.

ونسير مع ابن سلاّم في طبقاته فيطالعنا بحكم تقريري، يعلن عنه بألفاظ متخيّرة دقيقة، يقول: "وكان الشعر في الجاهلية عند العرب ديوان علمهم ومنتهى حُكمهم، به يأخذون وإليه يصيرون. قال ابن سلاّم... قال عمر بن الخطاب: "كان الشّعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحّ منه" فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهت عن الشّعر وروايته. فلمّا كثر الإسلام، وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب، وألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل، فحفظوا أقل ذلك، وذهب عليهم منه كثير. وقد كان عند النّعمان بن المنذر منه ديوان أشعار الفحول، وما مُدِح هو وأهلُ بيته به، صار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه"([18]).

قرأت هذا النص أوّلاً من كتاب "مصادر الشعر الجاهلي" ولمّا درست ما كتب ابن سلاّم عن العصر الجاهلي؛ شعره وشعرائه في طبقاته كانت لي وقفة متأنّية، وقراءة أخرى. فأدرت النص وقلّبته، فلمعت في ذهني أشياء وملاحظ كدت أقطع فيها، لولا وجود كتابات كثيرة حول ابن سلاّم وكتابه خشيت أن تكون قد أتت عليها وزادت، فعدت أقرأ وأنقّب، إلى أن رجح لدي دقّة العرب قديماً في تخيّر ألفاظهم. فرجعت بعد ذلك إلى نصّ الأسد الذي يعلّق فيه على كلام ابن سلاّم الآنف الذكر، وإذا تعليق الدكتور الأسد يعتريه النّقص والاستدراك.

وخلاصة ما قاله الدّكتور الأسد: "وكلام ابن سلاّم هذا ثلاثة أشطر: آخرها حق، وموسطها باطل، وأوّلها يحتاج إلى فضل بيان يوضّحه"([19]).

ابتدأ الدّكتور بالجزء الذي نعته بالبطلان فقال: "وأمّا البّاطل الذي لم نعد نشكّ في بطلانه وفساده فهو هذا التّعميم الواسع في قوله: فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن، ولا كتاب مكتوب"([20]). ثمّ أورد الدكتور ثلاثة أمثلة، قال: إنّها تنقض ما ذكره ابن سلاّم نفسه أو تضيّقه، وهي على التوالي: أخْذ ابن سلاّم المآخذ عمّن قصر علمه على النّقل من الكتب والمدوّنات، وذكره لقصّة النّعمان بن المنذر وأشعار الفحول، ورؤية ابن سلاّم نفسه لشعر جاهليّ مكتوب. هذا فضلاً عمّا دوّنه الدكتور في البابين الأوّلين من كتابه" مصادر الشعر الجاهلي".

ومن ثمّ انتقل الدكتور إلى الشّطر الثّالث؛ أعني الذي يحتاج إلى فضل بيان يوضّحه؛ وهو الجزء الذي يتّحدث فيه ابن سلاّم عن مجيء الإسلام وتشاغل العرب عن الشعر.

قال الدّكتور الأسد: "ولا بدّ لنا قبل ذلك _ أي قبل الحديث عن الشكّ في الشّعر الجاهلي ونحله في الباب الرابع من" مصادر الشعر الجاهلي" _ من أن نتساءل هنا: أحقّ أنّ العرب قد لَهَوا عن رواية الشّعر في هذه الفترة من حياتهم، فغفلوا عنه، ونسوا ذكره، وأضربوا عن روايته؟ وإذا كان

([18]) **طبقات فحول الشعراء**، ص24-25.
([19]) **مصادر الشعر الجاهلي**، ص195.
([20]) **مصادر الشعر الجاهلي**، ص196-197.

ذلك كذلك، فكم من السنين أو من القرون بلغت هذه الفترة؟ ثم أمِنَ الحقّ أنّهم حينما راجعوا روايته_ إذا سلّمنا بانقطاعهم عنها_ ألفَوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة لا بدّ من استقراء تاريخي، نتتبّع فيه حياة الرّواية عند القوم مبتدئين بالمعالم الواضحة في منتصف القرن الثّاني الهجري، ومتدرّجين فيها إلى الوراء حتّى نصل إلى أقصى ما نستطيع أن نصل إليه من معالم حياة الرواية الأدبيّة.

فإذا ما بدأنا بعهد بني أميّة، وجدنا أنّ بعض القوم آنذاك كان يرى أنّ العلماء العارفين بالشعر الجاهليّ قد ماتوا. ونحن نحسب أنّ هذا الضّرب من الكلام موجود في كلّ عصر، وأنّه لا يصحّ أن يحمل محملاً لفظياً قاطعاً، وإنّما هو ضرب من التحسّر على الماضي، وتمجيد القدماء، والإقرار بضعف الحاضر وعجزه إذا ما قِيسَ بالقديم السابق عليه. فأبو عمرو بن العلاء حينما سئل عن قول امرئ القيس... قال: قد ذهب من يحسنه. وحين سئل عن قول الشّاعر... قال: مات الذين يعرفون هذا.

بل إنّ الحَجّاج بن يوسف الثّقفي قال على المنبر: " ذهب قوم يعرفون شعر أميّة وكذلك اندِراس الكلام " وبين الحجّاج وأميّة بن أبي الصلت نحوٌ من ثمانين سنة.

وسنسوق في إيجاز بعض ما يكشف لنا عن عناية القوم، حتى منتصف القرن الأوّل برواية الشّعر الجاهلي وأخبار الجاهلية، وسنصرف أكثر كلامنا إلى زمن عبد الملك بن مروان ومعاوية بن أبي سفيان؛ ليكون ذلك أبعد زمناً وأدلّ على ما نقصد إليه... "([21]).

وقد استرسل الدّكتور الأسد في ذكر أمثلته وبراهينه التي تكشف عناية القوم حتّى منتصف القرن الأول برواية الشّعر الجاهلي، وأخبار الجاهليّة إلى أن كان ختام الفصل الأوّل وبداية الفصل الثّاني من الباب الثّالث.

أولى الدّكتور الأسد التّدوين واعتماد الرّواية عليه إلى جانب الرّواية الشّفهية عناية فائقة، وقد أخذ نفسه بمنهج قوامه المنطق العقلي، ولكنْ في هذه المرة إخال الدكتور الأسد قد ظلم نصّ ابن سلاّم الآنف الذكر حين حكم على وسطه بالبطلان، وكذلك التّوضيح الذي جاء للجزء الأخير من كلامه.

فإذا راجعنا نصّ ابن سلاّم، ودقّقنا النظر علمنا أنّ فيه دقةً ربما تنفي أن يكون قصده كما فسّره الدكتور الأسد.

فابن سلاّم يُقرر ابتداءً وجود دواوين مدوّنة، وكتب مكتوبة، فبعد أن نبّه على تشاغل العرب بالإسلام والفتوحات عن قول الشعر قال:" فلم يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب"([22]).

وعندي أنّ عدم رجوع القوم إلى دواوين مدوّنة لا يعني بالضرورة عدم وجودها. ولذلك ربما كان الأجدر بنا أن نتساءل لِمَ لَمْ يؤولوا إلى ديوان مدوّن ولا كتاب مكتوب؟ والذي أُلاحظه أنّ ابن سلاّم كان دقيقا في اختيار مفرداته، فقوله آنف الذّكر ما هو إلا من باب إخراج الكلام مخرج الغالب ليس غير، وهذا الضّرب من الكلام يحمل في طيّاته معاني كثيرة، كضجرة من الانتحال([23])، والوضع، والتّصحيف، والتحسّر على فقدان كثير من الدّواوين. كما نفهم من كلامه الوثوق بالرواية؛ إذ إنّ اعتماد الرواية الشفهيّة أعلى وأجلّ من اعتماد الكتابة آنذاك_ حسب ما فهمت من نصه_ وذلك لندرة الأدوات المستخدمة في التدوين وصعوبتها إذا ما قورنت بالتّدوين لاحقاً.

([21]) **مصادر الشعر الجاهلي**، ص: 196-197.

([22]) **طبقات فحول الشعراء**، ص25.

([23]) لقد تحرّج ابن سلاّم من شعر يخلو من النّسبة أو الإسناد الصّحيح، وقد عرف القوم الوضع والنّحل، ولكنّ ابن سلاّم كان أشدّهم تحرّجا من هذا الشّعر، وأنفذهم صوتا في هذا المقام. انظر: إبراهيم، طه: **تاريخ النقد الأدبي عند العرب**، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1989، ص75.

وهذا ما أُرَجّحه، ذلك أنّ التّحريف والتّصحيف قد هيمن على كثير من الدواوين. فلا غرو والحال ما ذكر ألا يثق بالمدوّنات وثوقه بالرّواة الحُفّاظ والأعراب الأقحاح والقرّاء والعلماء. ولكنْ أين هؤلاء الذين يكمن حلّ المشكلة عندهم؟ لقد هلك عدد كبير منهم بالحروب.

وبالعودة ثانية إلى نصّ ابن سلاّم نلاحظ الدقّة والعناية في تخيّره للألفاظ. فهو يقول: "تشاغلت" ولم يقل: امتنعت العرب عن رواية الشّعر. ويقول "لهت" ولم يقل حرّموه على أنفسهم. ومَن مِنّا يُنكر أنّ العرب تشاغلت بمجيء الإسلام، ولهت عن قول الشعر والاعتناء به؟ وهل هذا يستغرب؟

لقد شغل الإسلام العرب في بداية عهده عن قول الشّعر، أو لنقل عن الانهماك في قول الشّعر، وذلك لأسباب كثيرة، أهمّها: تضييق الخناق على دواعيه من حروب وعصبيّات وغيرها. كما أنّ انشغالهم بالدّين الجديد وما فيه من معانٍ وبلاغة ربّما أسر كثيراً من العقول. فعدل بها_ في تلك الحقبة على الأقل_ عن قول الشعر. ومن ناحية أخرى: فإنّ الجهاد قد استغرق وقتاً طويلاً؛ من غزوات ومعارك وإنفاذ للبعثات وعقد الألوية وتسيير الجيوش، حتّى إنّ المنعم في أحداث التاريخ آنذاك يرى أنّ كلّ الكفايات_ تقريباً_ من بشر وعتاد قد هبّت للجهاد في سبيل نشر الإسلام، فمن بقي في الجزيرة؟ وأين الشعر مِمّن بقي؟ أين والجزيرة قد خرجت عن بكرة أبيها تؤدّي رسالة ربها؟

إذا تخيّلنا تلك الصّورة ربّما رجح عندنا أنّ العرب تشاغلت ولهت حقاً عن قول الشعر. وهلك في حروبهم الكثير بالضّرورة. فلمّا راجعت دواوينها ألْفَت بعض القبائل قلّة في شعرها أو ما قيل فيها، فكان الوضع والانتحال وغيره.

وبقي في النّفس شيء يتعلّق بما أورده الدكتور الأسد من عناية القوم بالشّعر حتّى منتصف القرن الأول. وقد ابتدأ في سبيل تحقيق هذا الغرض من بني أمية؛ ليكون ذلك أبعد_ حسب رأيه_، وأدلّ على ما يقصد. وعلى الرغم من أنّ الشواهد التي جمعها والبراهين التي ذكرها على درجة من الأهميّة، إلا أنّ سؤالاً بقي عالقاً لم أجد له جواباً شافياً وهو: هل من العدل أن نحكم على نصّ ابن سلاّم مبتدئين بعبد الملك والحجّاج؟ هل من العدل أن نبدأ ذلك والاستقرار قد بدأ يضرب أطنابه؟ وهل يجوز لنا أن نبحث في أرجاء الدولة الأمويّة عن براهين تؤكّد لنا عدم انشغال المسلمين في صدر الإسلام عن قول الشعر؟ وإذا روى أبو بكر وعمر وعثمان والصحابة الكرام الشّعر فهل معنى ذلك أنّ الناس تركت الحروب والفتوح والغنائم والسبايا وانهمكت في الشعر وقوله؟ لقد كان هناك اهتمام بالشعر وتدويه وروايته، ولكنّي أستطيع أن أقول: إنّه لم يكن همّ العرب آنذاك.

ومن هنا ينبغي لنا إذا أردنا أن ننقد كلام ابن سلاّم بهذه الطريقة أن نبحث على الأقل في عهد الرسول_ صلى الله عليه وسلم_ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده حين كانت الجزيرة في شغل شاغل عن الشعر وروايته. وأقول في الجزيرة لأنّ الأحداث التي نشبت بين علي ومعاوية رضوان الله عليهما كان ميدانها_ كما نعلم_ العراق والشام وليست الجزيرة. وربّما يكون من الدقّة في البحث حصر القضية بسنة ثلاثين هجرية(30هـ) على أبعد الأحوال. ونبحث أثناء ذلك في هذه السّنوات، وبعدها يُقال ما يُقال في كلام ابن سلاّم([24]).

ومستصفى القول أنّ ابن سلاّم يُقرّر ابتداء وجود الكتب والمدوّنات، لكنّهم لم يعودوا إليها بسبب عدم الثّقة في وقت كثر فيه التّصحيف والتّحريف. وبما أنّ العرب لها عناية خاصة في تخيّر ألفاظها فمن الأهميّة أن ننظر دلالات كلام ابن سلاّم وإشاراته، فنقبل ما يوافق الحقّ والبرهان، ونردّ

([24]) إنّ أسئلتي ونقاشي لهذه الفكرة امتداد وتوسيع لما دوّنه السلطان في كتابه (**ابن سلام وطبقات الشعراء**، ص292-297). ويُنظر تعليق الدكتور الأسد على نص ابن سلام الذي تقدّم ذكره من: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص194-221، ومن خاتمة: مصادر الشعر الجاهلي، ص: 627-628.

ما يعارض ذلك. هذا ما فهمته من عبارات ابن سلّام بعد وقفة متأنّية مع تعريفه للشعر، وما فيه من دلالات.

المطلب الثالث: التعصّب المذهبي وأثره في الشّعر

تقرأ في طبقات ابن سلاّم فتستوقفك قضايا نقديّة كثيرة، منها: حديث البصرة والكوفة وما يتّصل بذلك من توثيق للرّواة ونظر في النّسبة أو الإسناد، وهذه الثلاث في مجملها يُمكن أن تندرج تحت عنوان: التعصّب المذهبي وأثره في الشّعر.

إنّ دارسي الأدب والنّقد يُجمعون على وجود خلاف بين مدرستي البصرة والكوفة، على مستوى المصادر وفي المنهج كذلك. ففي الوقت الذي توسّعت فيه مدرسة الكوفة في رواية الأشعار كانت المدرسة البصريّة تأخذ نفسها بمنهج أكثر حدّة وصرامة من حيث ضوابط أخْذ الشّعر وروايته. ومن ثمّ كان التّعصب المذهبي الذي أدّى إلى التزيّد في الشّعر أحياناً. الأمر الذي دعا إلى ضرورة الوقوف عند رواة كلتا المدرستين؛ إذ إنّ داعي التّعصب قد جنح بجماعة من الباحثين إلى الاتّهام والشكّ في ثقة بعض الرواة. وربما كان حديث النّسبة أو الإسناد ذيلاً رئيساً لهذه القضية.

وبِدْءاً بالبصرة والكوفة يقول ابن سلاّم: " وكان لأهل البصرة بالعربية قُدمة، وبالنّحو ولغات العرب عناية"([25]).

ويقول: " أخبرني يونس بن حبيب: أنّ علماء أهل البصرة كانوا يُقدّمون امرأ القيس ابن حُجر، وأهل الكوفة كانوا يُقدّمون الأعشى"([26]).

نلاحظ تنبّه ابن سلاّم لهذه القضية، وإشاراته إليها ولأثرها عن وعي تام، ولذلك سيكون لها حظّ وافر في كتابه، سواء أكان ذلك في الحكم أم الاختيار. وهو بصري يصدر عن منهج بصري بالضّرورة فيقدّم فيه أصحابه على غيرهم، كما هو ملاحظ في غير ما موضع من كتابه. على أنّه لا يعني أنّ أهل الكوفة لا علم لهم بالعربية، لهم ذلك، ولكنّ التّقديم والصّدارة لأهل البصرة، وكون ذلك كذلك فأصحابه أكثر علماً وأعظم دراية وتنقيحاً من أهل الكوفة.

وقد سحبتْ هذه الوجهة ذيلها على الأحكام، فابن سلاّم إذ يعقد على هذا المنهج أحكاماً، لا يُغفل بالضرورة النّظر في شيوخ المدرستين. فقد بلغ من شأن أبي عمرو بن العلاء أن قال فيه ابن سلاّم:" وسمعت يونس يقول: لو كان أحد ينبغي أن يؤخذ بقوله كلّه في شيء واحد، كان ينبغي لقول أبي عمرو بن العلاء في العربية أن يؤخذ كلّه، ولكنْ ليس أحد إلا وأنت آخذ من قوله وتارك"([27]).

وقال في خلف: "اجتمع أصحابنا أنّه كان أفرس الناس ببيت شعر، وأَصدَقَهُ لسانا، كُنّا لا نُبالي إذا أخذنا عنه خبرا، أو أنشدنا شعرا، أن لا نسمعه من صاحبه"([28]).

وقال أيضاً: "وكان الأصمعي وأبو عبيدة من أهل العلم، وأعلم من ورد علينا من غير أهل البصرة: المفضّل بن محمد الضّبيّ الكوفي"([29]).

هذه الإشارات وتلك الشّهادات وغيرها كانت مرتكزاً رئيساً عند ابن سلاّم في إصداره لكثير من الأحكام النّقدية في كتابه. وكان الدّكتور ناصر الدّين الأسد مهتمّا في تتبّع أبعاد هذه القضيّة

([25]) **طبقات فحول الشعراء**، ص12.
([26]) **طبقات فحول الشعراء**، ص 52، وانظر أيضا: ص148 في حديثه عن الأسود بن يعفر، فقد أورد نصا واضحا أيضا في الخلاف بين البصر والكوفة من حيث التجوّز في الرواية.
([27]) **طبقات فحول الشعراء**، ص 16.
([28]) **طبقات فحول الشعراء**، ص23.
([29]) **طبقات فحول الشعراء**، ص23.

والتّصنيف فيها([30]). ليجيء بعد ذلك الدّكتور شوقي ضيف مصنّفاً في المدارس النّحوية على هيئة من العرض والتفصيل أحيانا. ولكنّ هذا التصنيف والتوسّع في الدّراسة لم يمنعه من مهاجمة بعض شيوخ المدرستين، والتّشكيك في ثقتهم، وذلك في كتابه" العصر الجاهلي".

وأنت تعجب من أسلوب الدّكتور شوقي حين صدر عن حكم سابق مفاده: أنّ أهل الكوفة لا يتشدّدون في روايتهم تشدّد أهل البصرة، ولذلك_ قال_ : تضخّمت رواياتهم، ودخلها موضوع ومنتحل كثير([31]). وأشار بعد ذلك إلى تشكّك كل طرف بالآخر مقتبساً ذلك من "مصادر الشعر الجاهلي" إلى أن قال: "ولكنْ إذا صفّينا هذه التّشكيكات والتّنديدات اتّضح لنا أنّ رواية البصرة في جملتها أوثق من رواية الكوفة. وليس معنى ذلك أنّ رواة الكوفة في الجملة كانوا متّهمين بخلاف رواة البصرة، فبين الطرفين جميعاً متّهمون، وموثّقون أحاطوا روايتهم بسياج من الأمانة والدقّة والتحرّي"([32]).

ويعزو الدّكتور شوقي السّبب الحقيقي في تقدّم البصرة على الكوفة في الرّواية إلى أنّ رأس رواة البصرة وهو أبو عمرو بن العلاء كان أمينا([33])، بينما كان رأس رواة الكوفة حمّاداً، وكان متّهماً كثير الوضع، لا يوثق بما يرويه([34]).

ويحمل بعد ذلك الدكتور شوقي حملته على حمّاد، فيورد له أخبارا تدلّل على فساد مروءته وفسقه ومجونه وزندقته. ومن الأخبار التي عرض لها الدّكتور: قصّة حمّاد المشهورة مع المفضّل الضبيّ في مجلس أمير المؤمنين([35]). ولمّا كان الدكتور شوقي يصدر عن حكم مُسبق في أمر حمّاد فلن يتوانى_ إذن_ في نقاش من يشكّك بهذه القصّة، وهو ما كان بالفعل. قال: إنّ هناك من تأخر في وفاة حماد إلى سنة164هـ، يقول هذا ليقرّر أنّ حياته كانت في ولاية الخليفة المهديّ. وربّما بالغ أكثر حين أحسّ أنّ القارئ قد لا يميل إلى تأويله هذا فقال: "وربّما أخطأ الرّواة في تعيين الزمان والمكان"([36])؛ يعني زمن وفاة حمّاد وحدث القصة الذي قيل إنّه كان في قصر عيساباذ. ولمّا لم يطمئن إلى أنّ قارئه سلّم بما قرّر وأعاد، أخذ في منحى آخر وقال: "كما لا يدفعها- يعني قصّة حمّاد والمفضّل مع الخليفة المهدي_ ما يذكره بعض هؤلاء الباحثين من أنّ اتّهامه الواسع قد يرجع إلى المنافسة بين البصرة والكوفة، فسيرته كانت سيرة شخص سيء السيرة خلقياً ودينياً"([37]).

ولست أدري لِمَ هذا القطع في تلك الاتّهامات، فأخبار حمّاد قبل تنسّكه تختلف عنها بعد ذلك ([38]). إنّ موضوع حمّاد لا يُقطع فيه بخبر أو أكثر؛ لوجود مرحلتين في حياته: قبل تنسّكه وبعده، ويبدو أنّ الدكتور شوقي ضيف نظر إلى مرحلة من هذه المراحل واعتمدها في الحكم.

([30]) انظر: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص429-478.
([31]) انظر: **العصر الجاهلي**، ص149.
([32]) **العصر الجاهلي**، ص149.
([33]) أبو عمرو بن العلاء هو أحد القُرّاء السبعة (ت154هـ). انظر: القاضي، عبد الفتّاح: **الوافي في شرح الشاطبيّة**، ط2، القاهرة: دار السّلام، 2004، ص15 عند شرحه بيت الشاطبية (29): وأمّا الإمامُ المازنيُّ صريحُهم//أبو عمرو البصري فوالده العُلا.
([34]) انظر: **العصر الجاهلي**، ص149.
([35]) انظر: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص438-440، ص442-445.
([36]) **العصر الجاهلي**، ص152.
([37]) **العصر الجاهلي**، ص152.
([38]) انظر: الفصل الخامس من: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص429-478، بعنوان: توثيق الرواة وتضعيفهم، وكذلك تفصيل الحديث في المدرستين، وأسباب اختلافهما، وما أورده الأسد من نصوص في هذه السبيل، وما كان من حديث عن حمّاد وخلف وقصصهما، ونقاش هذه القصص أو الأخبار، ثمّ الخلوص بعد ذلك إلى توثيقهما، وردّ ما يُنسب إليهما من طعن وغمز، وذلك بالحجّة والبرهان، وانظر كذلك التحوّل في حياة حمّاد من: (**مصادر الشعر الجاهلي**، ص557-558).

وما أن انتهى الدكتور شوقي من حملته على حمّاد حتى أخذ يُسدّد سهام الاتّهام إلى خلف الأحمر رافضا شهادة ابن سلّام له: "غير أنّ شهادة ابن سلاّم له لا تعفيه من التّهمة الشّديدة التي سلّطت على روايته"([39]).

ويبقى الحديث عن مدرستي البصرة والكوفة، والرّواة وتوثيقهم شائكاً وعراً يحتاج إلى دراسات بمناهج أُخرى، وربّما دراسات فنيّة كذلك تتجاوز حدود الشّكل والمضمون.

وإذا عدنا إلى ابن سلاّم نراه يحفل بأقوال العلماء ولا يخرج على إجماعهم، ولا يقدح في أحكامهم_ إلا ما ندر_ فهم أساس الحكم، وأصحاب المرتبة العليا فيه. وحُقّ له ذلك، فالشّعر صناعة وثقافة ولذلك لا بد من المعاينة، وهذه لا تكون إلا من عالم ناقد.

وهناك جانب آخر يتعلق بالرّواة وتوثيقهم أو العلماء والنقّاد وهو: منهج ابن سلاّم في ذكره للشاعر وشعره. فابن سلّام لا يذكر شاعرا _ في أغلب الأحيان _ إلا ويُصَرّح لنا بِنَسَبِه، وربّما ذكر خبرا أو أكثر عن تاريخ حياته وسيرته. ولا عجب من هذه النّسبة فالعصر عصر المحدّثين وأصحاب الطبقات والجرح والتعديل، ولذلك ينسب، ويُبيّن ما في ذلك من جرح وتعديل. والسؤال الذي يهجم على الخاطر: من أين لابن سلاّم هذا؟ يغلب على ظنّي أنّها عدوى حسنة محمولة على أهل الحديث. إلا أنّ الدكتور الأسد يُرَجّح أن الرواية الأدبية أصل قائم بذاته، وقد وُجدت عند العرب منذ الجاهلية([40]). وزاد أن قال: إن رواية الحديث إن لم تكن من حيث الطور الزمني متأثرة برواية الأدب فقد تكون فرعا عنه، فالرّوايتان أصلان انبثقا عن الحاجة الملحّة انبثاقاً طبيعيا ([41]). على أن الدكتور الأسد يعلم أنه ربما خالف بهذا الحكم ما ألفه القوم وتعارفوا عليه.

والذي أراه أنّ الأمر على غير ما ذكر الدكتور الأسد، وذلك من حيث النّظر في طبيعة المادّة وأهميّتها، ورجال كل منهما. وليس هذا بالغريب، فلقد نصّ الرّافعي من قبل على أنّ الإسناد في علم مصطلح الحديث كالذي في الروايات الأدبية. " أما تاريخ اتّصال ذلك بالأدب... فلا جرم أنهم كانوا ينسبون أكثر ما يتناقلونه، إلا أنّ النسبة غير الإسناد فيما اصطلح عليه الرّواة؛ لأن الإسناد لا يراد به إلا شهادة الزمن على اتّصال النّسب العلمي بين راوي الشيء وصاحب الشيء المرويّ، حتى يثبت العلم بذلك على وجه من الصحّة الدّعوى التي تتلقى بثَبَتِها من البينة، وهذا لا يستقيم إلا إذا صارت الرّواية صناعة علميّة، ولم يكن في العرب شيء من ذلك بالتحقيق، إلا بعد قيام دولة بني مروان حين

([39]) **العصر الجاهلي**، ص153. يذكر أنّ الأسد نظر النصوص التي ذكرها ابن سلاّم وغيره في مبحثه عن توثيق الرّواة وتضعيفهم. وقد تتّبعت هذه النصوص وأُعجبت بنقاش الأسد، غير أنّ خبرا في معرض توثيق حمّاد لم أفهم حيثيّاته؛ فحمّاد لم يُعرف بقول الشعر، كلام طيّب إلى حدٍّ ما، ولكنّ الأسد يعود لحسم قضيّة حمّاد مع الشعر حين يقول: " ولسنا في حاجة إلى إطالة القول، وبين أيدينا خبر آخر، إن لم يكن ذا دلالة قاطعة على أنّ حمّادا حين أراد أن يمدح بلال بن أبي بردة لم يستطع أن ينظم شعرا في مدحه، وإنّما انتحل لنفسه شعرا جاهليّا قديما ووجّهه في مدح بلال، ولم يكتشف ذلك إلا ذو الرمّة حينما سمع حمّادا ينشده، ثمّ اعترف" **مصادر الشعر الجاهلي**، ص444. والقصة من الأغاني كما ذكرها الأسد تحت عنوان: حمّاد ينتحل الشعر الجاهلي ويدّعيه لنفسه: "إنّ حمّادا الراوية قدم على بلال بن أبي بردة البصرة، وعند بلال ذو الرمّة، فأنشده حمّاد شعرا مدحه به. فقال بلال لذي الرمّة: كيف ترى هذا الشعر؟ قال؟ جيّدا، وليس له. قال: فمن يقوله: قال لا أدري، إلا انّه لم يقله. فلمّا قضى بلال حوائج حمّاد وأجازه، قال له: إنّ لي إليك حاجة، قال: هي مقضية. قال: أنت قلت ذلك الشعر؟ قال: لا. قال: فمن يقوله: قال: بعض شعراء الجاهلية، وهو شعر قديم، وما يرويه غيري. قال: فمن أين علم ذو الرمّة أنّه ليس من قولك؟ قال: عرف كلام الجاهلية من كلام أهل الإسلام" **مصادر الشعر الجاهلي**، ص442، وشبيه هذا الخبر عند الجمحي، انظر: **طبقات فحول الشّعراء**، ص48.

وفي التعليق على ما تقدّم أرى أنّ ابن أبي بردة لم يطلب من حمّاد أن ينشده شعرا من خاصّة نفسه، فالنص: "فأنشده حمّاد شعرا مدحه به" بهذه الصيغة النكرة، فتعجّب ابن أبي بردة ربّما من حسن هذا الشعر، وجمال رونقه فاستشار ذا الرمّة في ذلك، فأقرّ له بجودته، ولكنّه قال: ليس له. وهذا القول لا يعني أنّ حمّادا انتحل هذا الشعر لنفسه، ولو كان ذلك كذلك، لردّ عليه ذو الرمّة في حينه، فما الذي يمنعه من التأخّر في الاعتراض على ما قاله حمّاد؟ ولمّا سئل حمّاد عن ذلك، قال: إنّه لم يقله. ثمّ كيف نحكم على حمّاد بأنّه لا يحسن قول الشعر؟ على حين يُعدّ حمّادا من أوعية الشعر والأخبار. يُمكنني أن أقبل توثيق حمّاد بكلّ طمأنينة، لكنّي في هذه المرّة لم آنس من نقاش الأسد قوّة وإحكاما، الأمر الذي استدعى التعليق. وربّما لا أبحث عن الجواب بحثي عن منطقيّة السؤال والاستفسار، فحمّاد ثقة عدل به صفات الرّواة الثّقات العدول، ولكنْ، هل هذا النص يوثّق حمّادا؟

([40]) انظر: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص255.

([41]) انظر: **مصادر الشعر الجاهلي**، ص256.

اتّخذوا المؤدّبين لأولادهم، وذلك هو العهد الذي تسلسل فيه إسناد الحديث أيضاً لتشعّب طرقه كما أومأنا إليه من قبل"([42]).

ذكر الرّافعي بعد ذلك أنّ أوّل إسناد كان علمياً بحتاً هو: إسناد نصر بن عاصم الليثي إلى أبي الأسود الدؤلي، وكان هذا إلى أن نشأت الطّبقة التي بدأ الإسناد معها وهم: حمّاد وأبو عمرو وغيرهما، ومن ثمّ صارت الرواية علميّة محضة، فتحقّق المعنى الاصطلاحي لكلمة الإسناد. ويعتبر الأستاذ الرّافعي أنّ الإسناد لم يكن واجباً قبل ذلك على نحو ما هو في الحديث، ويقرّر بأنّ كلّ أسانيد الأدباء على اختلاف عصورهم إنما تنتهي في مجملها إلى الطّبقة الأولى فحسب، ولا تكاد تجد رواية واحدة يتّصل سندها إلى الجاهلية في شيء من الشّعر والأخبار، إنّما يكتفون بالنّسبة إلى أولئك([43]).

أما الدكتور علي العتوم: فيؤكّد ما قاله الرّافعي، ولكنْ من جهة أخرى، حيث يرى أنّ الإسناد كان على الأرجح منقطعاً مع العصر الجاهلي؛ لكون العرب لم يكونوا أمّة متحضّرة بالمعنى الاصطلاحي المعروف لكلمة حضارة. ولمّا كان الإسناد ظاهرة حضارية متقدّمة، وهم ليسوا أمّة متحضّرة، فقد خلص إلى أنّ هذه الظاهرة إنّما هي إبداع إسلاميّ صرف اقترنت بحديث رسول الله_ صلى الله عليه وسلم_ والشّعر على رفعته ومكانته في النّفوس لم يبلغ هذه المرتبة. على أنّ الإسناد لم يقم أمره ولم يستو على سوقه إلا في القرون التالية متأثراً ومحمولاً دون أدنى شك بطرق المحدّثين في الرّواية، وذلك بعد أن استقرّ علم الحديث ومصطلحه. وعلى الرغم من ذلك، فالدكتور العتوم لا ينكر أن يكون في العصور الأولى وجه من وجوه الإسناد، ولكن إن وجدت مثل هذه الأسانيد فهي أسانيد منقطعة مبتورة لا ترتفع إلى مكانة أسانيد الأحاديث النبوية أو تقاربها، وذلك على فرض صحّتها ووجودها([44]).

وبهذا فإنّ الدكتور الأسد أعطى الرّواية الأدبيّة مصطلح الإسناد لأخبار جمعها تظهر أنّ في بعض الروايات إسناداً سواءً أكان متّصلاً أم منقطعاً. أما الرّافعي فالمصطلح عنده هو النّسبة وليس الإسناد، لأنّ كلاً منهما يحمل معنى غير الآخر وإن تشابها أحياناً. وإذا اعتبرت كلام الرافعي حقاً، فمصطلح الإسناد للرّواية الأدبيّة عند الدكتور الأسد جديد. ولكنّ الدكتور العتوم لا يُسلّم للدكتور الأسد بحقيقة الإسناد عند الأوائل؛ لغياب شمس الحضارة عن العرب آنذاك، ويرجّح بأنّ الإسناد في الأدب محمول على الإسناد عند المحدثين.

وخلاصة القول فإنّ الدكتور الأسد ربّما جدّد في المصطلح أو في مفهومه، فإذا كان الرافعي يطلق على سلسلة الرواة "نسبة" فإن الدكتور الأسد قد سمّاها إسناداً. ولم أر من تعريف الرافعي فرقاً بيّناً بين النسبة والإسناد، أمّا إذا كان قصد الرّافعي أنّ العرب لم تكن تسند كلامها، وهو ما قال به العتوم، فهذا صحيح إلى حدّ ما، أمّا قول العتوم بأنّ الإسناد في الرواية الأدبية محمول الإسناد في الحديث الشريف فهذا حقّ، ولكّنه كان متأخراً أو عند المتأخّرين.

الخاتمة:

بنيت دراستي على ثلاث قضايا رئيسة، كانت الأولى في نشأة الشّعر، وفيها غلب على ظنّي عدم القطع في الأحكام المتعلّقة بالنّشأة، وأنّ ما كتبه الدّكتور ناصر الدين الأسد في النّشأة، ما هو إلا

([42]) الرافعي، مصطفى الصادق: **تاريخ آداب العرب**، ج1، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1974، ص287.
([43]) انظر: **تاريخ آداب العرب**، ج1، ص287-290.
([44]) انظر: العتوم، علي: **قضايا الشعر الجاهلي**، ط1، ص93-96، و ص457.

امتداد وتوسيع لكلام ابن سلاّم، مع التّأكيد على أنّ ذِكر ابن سلاّم لهذه القضيّة كان لمقصد أكبر، وهو موضوع الانتحال.

وفي القضيّة الثانية؛ الشّعر ديوان العرب تبيّن لي أنّ ابن سلاّم في حديثه عن الشّعر المصنوع كان يؤسّس لنظريّة نقديّة، أساسها تعريف الشّعر، فهمت ذلك من نقيض المذكور (مفهوم المخالفة)، ثمّ تأكّد لي ما توصّلت إليه من خلال أحكامه النّقدية على الشعر والشّعراء، فقد اعتمد التّعريف الذي استنتجته أساسا ومعيارا للحكم على ما أودعَ في كتابه. وأمّا ما كتبه الدكتور الأسد من تعليق على تشاغل العرب عن قول الشّعر فليس بدقيق، ويحتاج إلى مراجعة، فقد عمّم في مواطن لا يجوز فيها التّعميم.

وفي الثالثة؛ أعني التعصّب المذهبي رأيت تنبّه ابن سلاّم لمصادر مدرستي البصرة والكوفة، وما يتعلّق بذلك من حديث عن الرّواة والإسناد، وعدم موافقتي الدكتور طه حسين لما تجنّاه على العلماء الرواة من المدرستين، ومع أنّ ابن سلاّم لم يتعصّب لأحد، إلا أنّ أثر المنهج البصري واضح في منهجه. وقد تأكّد لي أيضا أنّ الإسناد في الرواية الأدبية محمول على الإسناد عند المحدّثين.

وبعد، فقد رأيت سوى ما تقدّم أنّ أثر ابن سلاّم واضح في كثير من الدراسات النّقدية الأدبيّة، ويحسنُ أن ينسج الباحثون دراسة مستقلّة يتتبّعون فيها ذلك، ولعلّها تكون بعنوان: التّناص النّقدي عند المتأخّرين. والله وليّ والتوفيق.